

الغزو الفرنسي للغرب الجزائري و انعكاساته

الأستاذ: محمد بن سليمان خليفة

أقدم إلى القراء الكرام هذا البحث الذي يتناول فترة حاسمة وأليمة في تاريخ المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي. الوثائق التي نقدمها للقراء الأعزاء تزيح الغطاء عن جانب هام من مقاومة الأمير عبد القادر والصعوبات الكبيرة التي أحاطت بها كما تظهر له انعكاسات الأحداث التي ترتبت عنها على الوضع الداخلي والخارجي للمغرب الشقيق والتجارب على المستوى الشعبي الذي أثبتته هذا الأخير في هذه الفترة العصيبة في الدعوة للجهاد من أجل نصرة الإسلام والمسلمين في الجزائر التي كان ينادي بها الأمير عبد القادر في المغرب.

حيث أن كل ما يستخلصه القارئ الكريم هو أن مصير أقطار المغرب العربي واحد، إبرام عقد طنجة لم يأت بالسلم والاستقرار في المغرب ولم يمهله الأزمات في العلاقات مع فرنسا بل زاد هذا العقد في تعقيد الوضع الداخلي والخارجي في المغرب الشقيق.

فقد خرج الأمير عبد القادر من المغرب مع القليل من أفراد دائرته الذين نجوا من واقعة سلوان الأخيرة ولقي في طريق عودته إلى الجزائر المحتلة الحدود محروسة بعساكر العدو ولم يجد بدا سوى إيقاف المقاومة التي دخلت في طريق مسدود رفقا بالمواطنين الذين لم يعودوا قادرين على تحمل المزيد من العذاب والألم، والشعب المغربي الشقيق لم يستطع تفادي نفوذ العدو في شتى المجالات وبالخصوص في مجال التجارة حيث ارتياد المغاربة على الأسواق في

المغرب الجزائري عاد أمرا عاديا يتعاملون فيها مع الفرنسيين وذلك ما تبينه لنا الوثيقة التي نقدمها لقراء الكرام إنها رسائل تتعلق كلها بالأحداث التي ترتبت عن الاحتلال الفرنسي للجزائر وكان مسرحها القطر الجزائري وبالأخص الجهة الغربية منه والمغرب الشقيق في الفترة الممتدة من تاريخ استيلاء الفرنسيين على مدينة الجزائر إلى غاية ثاني رمضان المعظم 1264هـ (موافق 2 أوت 1848م).

إن من بين 38 وثيقة، 24 منها صادرة عن السلطات عبد الرحمان بن هشام، الذي تولى العرش في المغرب الأقصى من سنة 1822 حتى 1859 وهي الفترة التي تم فيها احتلال فرنسا للجزائر وكان قد وجهل لأعوانه الذين أوكل لهم مهام مختلفة في الجهة الشرقية للمغرب الأقصى والتي تمتد من تازة إلى مدينة وجدة وكذلك إلى من كان يمثلها في تلمسان، وأما الوثائق الباقية أي 14 منها فإنها صدرت من أعوان السلطان وموجهة إلى هذا الأخير.

وبجدر التنبيه أن أعوان السلطان عبد الرحمان بن هشام المعنيين هم من أفراد الأسرة المالكة فإن بعض الرسائل التي نقدمها في هذا الملف موجهة من السلطان إلى ولد عمه مولاي علي وخاله الطالب بن حمان الحراري و 12 لولده سيدي محمد الذي استخلف في ما بعد والده على عرش المغرب تحت اسم محمد الرابع، ومن بين تلك

الرسائل يجد القارئ الكريم رسالة بعث بها الأمير عبد القادر للسلطان عبد الرحمان في فاتح ربيع الثاني 1260هـ (الموافق لـ 20 أفريل 1844م) يلتبس فيها من هذا الأخير قبول أولاد المرحوم السيد احمد بن أبي طالب، وهم أحكم وإخوته للمقام بجوار حضرته، وذلك قبل أن تتأزم العلاقات بينهما.

فإن الملف هذا يمكن القارئ من التعرف على انعكاسات الاستيلاء الفرنسي على مدينة الجزائر وعلى الوضع السياسي والأمني في الغرب الجزائري وكذلك في المغرب الشقيق وخاصة على نشاط الأمير عبد القادر في هذه البلاد وما تسبب فيه من تأزم من جهة الكثير من القبائل المغربية للأمير عبد القادر وتمرداها على ملكها ومن جهة أخرى في تفاقم الصراع بين الأمير عبد القادر والسلطان عبد الرحمان بن هشام.

فإن المثير كذلك في تلك الوثائق هو ما تكشفه للقارئ من خلفيات لأصحابها ودواليب سياسة المخزن وطرق ممارستها حسب الظروف وطبيعة الأحداث.

ويجدر تنبيه القارئ الكريم أن من بين 38 رسالة لم يعثر باحثو أكاديمية علوم المستعمرات إلا على النص المترجم إلى اللغة الفرنسية فيما يخص 14 وثيقة قمنا بنقلها إلى اللغة الوطنية وتوخينا في ذلك بقدر الإمكان الأسلوب الذي كان مستعملا آنذاك من طرف كتاب السلطان عبد الرحمان بن هشام، أما 24 وثيقة أخرى

فهي صورة فوتوغرافية للأصل والملف هذا نشر في مجلة الأكاديمية المذكورة، كتاب 2 سنة 1925 وحتى يفهم القارئ فحوى تلك النصوص ويستوعب قيمتها الوثائقية فلا بد أن يتذكر مسبقا الوضع السياسي والاجتماعي والأمني للبلاد في عهد الأتراك والأشهر الأولى من الاستيلاء الفرنسي على مدينة الجزائر وخير تحليل للوضع الداخلي والخارجي للجزائر في هذه الفترة المعينة من التاريخ هو ما نجده في نص البيعة الخاصة من أهل غريس والتي عقدها هؤلاء في أوائل رجب سنة 1248هـ للأمير عبد القادر ورسائل التأييد لتلك البيعة التي صدرت عن مشايخ وعلماء الناحية والتي يجدها القارئ في هذا الملف وحتى نتعرف على وضع الجزائر في أوائل الاحتلال الفرنسي نتعرض بإيجاز إلى ما هو وارد في نص البيعة.

- الوضع الداخلي والخارجي حسب نص البيعة:

حيث ترتب عن الاستيلاء على مدينة الجزائر وزوال سلطة الأتراك وتخلي الدولة العثمانية عن الجزائر وضع تميز حسب نص البيعة بـ "تشتيت الكلمة واختلال النظام حيث لم يجد الناس لقتالهم سبيلا ولا من يكن للجهاد دليلا " فكانت في الآونة الأولى من احتلال مدينتي الجزائر ووهران هي قيّام كل فئة من الشعب الجزائري بالالتفاف حول من يظهر لها أنه قادر على القيام بأمور دينها ودنياها

وردّ الاعتداء عنها ، فهذا الغرب الجزائري يوجه أنظاره نحو سلطان المغرب وهذا الشرق الجزائري يلتف حول باي قسنطينة وهؤلاء سكان وسط البلاد يولون أمر قيادتهم في شؤون دنياهم وآخرهم للأولياء وأعيان منهم ، حيث أن الأهداف التوسعية للاستعمار لم تكن غائبة في أذهان الشعب الجزائري ، فإن هذه المقاصد الخطيرة التي تهدد الجزائر فحسب بل العالم الإسلامي بأكمله منصوص عليها في نص البيعة وبعد فقال صلى الله عليه وسلم: "إنّ الله يحمي بالسلطان ما لا يحمي بالقرآن" وهذا الزمان الذي فاض فيه العدل وارتفع فيه الجهل ، فما بالك بزماننا الذي كثر فيه الباطل وارتفع الحق ولم يظهر له أثر حتى أن أعداء ملكوا كثيرا من بلاد الإسلام" ، فما موقف المغرب من الوضع المترتب عن احتلال مدينة الجزائر ونوايا الأعداء في التوسع واستعمار البلاد الإسلامية؟

- انعكاسات أحداث الجزائر على الوضع في المغرب:

يتبين من دراسة الملف هذا أن السلطان عبد الرحمان بن هشام تفهم الوضع المترتب عن غياب السلطة بعد طرد الأتراك منها وحاول استخلاف هؤلاء في مجال ممارسة مهام الدولة ولكن تعقد الوضع بسبب تفاقم الضغط العسكري الفرنسي والتناقضات داخل المجتمع الجزائري وبالخصوص الصراعات بين الفئات من الأصل التركي أو منحدره من أب تركي وأم جزائرية أي ما يطلق عليه اسم الكراغلة والجزائريين من أصل محلي حال دون تحقيق هذا

الهدف، ومن ثم نرى أن موقف السلطان عبد الرحمان بن هشام تحول من موقف الزعامة في الجهاد ضد الأعداء إلى موقف حيادي ثم إلى موقف معاد للأمير عبد القادر وهذا ما سيراه القارئ عند دراسته النصوص المقدمة إليه.

- طلب النواحي الحدودية في بيعة السلطان:

بعد ثلاثة أشهر من استيلاء الجيش الفرنسي على مدينة الجزائر وطرد الأتراك منها توجه وفد مكون من أعيان القبائل الحدودية إلى فاس ليطلب من سلطان المغرب الدخول في حمايته وبالكتاب المؤرخ في 17 ربيع الثاني عام 1246 م (5 أكتوبر 1830) الموجّه إلى تلك القبائل وافق السلطان على طلب وفدها في الدخول في بيعته ليقوم بجمع كلمة المسلمين وكل ما فيه خدمة الإسلام والمسلمين وطلب منهم أن يلتزموا بما أمر الله به ورسوله وأخبر السلطان القبائل المبايعة له بأنه عين ولد عمه مولاي علي القدوم إليها من الجيش الملكي ليتولى نيابة عنه لديها وكذلك خاله الطالب إدريس بن حمان الجراري للتصرف معه كوسيط بينهما والأمير مولاي علي، ولمواجهة الأعداء حتّ السلطان عبد الرحمان في كتابه على الالتزام بحبل الله والبقاء على صف واحد لأن العدو الكافر يترقبهم وإنه لا يقف عند حد إذا ما ظهرت له فيها هفوة وحض السلطان القبائل على الاجتهاد من أجل نزع الأنفة عن العدو . -

والقبائل الموجه أليها الكتاب هي: غرابة، أولاد ذوي يحي وأولاد سيد مجاهد .

- العمل على جمع الكلمة تحت لواء واحد:

حيث يتبين مما سبق أن السلطان عبد الرحمان اتخذ كإجراء أولي لمواجهة الوضع قرار تعيين ولد عمه مولاي علي على رأس محلة لتمثيله في الناحية وخاله الطالب إدريس بن حمان الجراري المكلف بالعلاقات بين القبائل ونائب السلطان مولاي علي من الكتاب الذي وجهه في تاريخ 22 ربيع الثاني 1246 (10 أكتوبر 1830) لخاله إدريس بن حمان الجراري، عامل وجدة، أن ترى أن حركة الدخول في بيعة السلطان عبد الرحمان بن هشام زائدة في التوسع، فهذا دور سكان مدينة تلمسان وبعض قبائل الأحواز الذين قاموا بتوجيه وفد منهم لديه من أجل الانضواء تحت لوائه، وقد قبل السلطان طلبهم ولكن تساءل عن أسباب غياب في الوفد الذي استقبله أعيان قبائل بني عامر، الحشم، الزمالة والدوائر التي يعتبرها العمدة في النواحي الغربية لأنه يريد أن يوحدتها تحت لواء واحد.

ويجدر التنبيه أن القبائل غير الممثلة في الوفد السابق هي إما موالية للوالي الصالح الشيخ محي الدين ولد الأمير عبد القادر كقبيلة الحشم التي تسكن نواحي معسكر، أو للأتراك شأن قبائل بني عامر، الدوائر والزمالة التي تقطن النواحي الواقعة بين وهران

وتلمسان والتي كانت تشكل آنذاك ما كان يسميه الفرنسيون بالحزب التركي، فإن جمع كلمة تلك القبائل تحت لوائه أمر ضروري وفي هذا الصدد أمر السلطان عبد الرحمان عامل وجدة الطالب إدريس بن حمان الجراري بمكاتبة القبائل غير الممثلة في الوفد ليشرح لها الغاية من التوحيد المغربي في الناحية وبالتعبير التالي: "وقل لهم أن فلان لا رغبة له في هذا الأمر وقد قدم عليه أعيان تلمسان وبعض قبائلهم وذكروا أنهم معهم على كلمة واحدة في الرغبة في الدخول في طاعته والطلب في حمايته، وقد أجابهم لما طلبوا منه ذلك طلبا لجم كلمة المسلمين وحفظهم من أن يستفزههم العدو الكافر ويفرق جماعتهم وصونا لهم من الهرع والفتن وأنتم أولى من سعى في ذلك وقام به، ينبغي لكم أن ترغبوا فيه أكثر من غيركم وقد عين ولد عمله الأرضى مولاي على للتوجه لهذه النواحي وهو في صدد القدوم في محلة من جيشه يصبحكم أو يمسيكم وهو بضعة نبوية ينبغي لكم تقديم جماعة من أعيانكم لملاقاته عندنا تعظيما لقدره، ورغبة في أمره فإن لكم عنده من المنزلة والمزية فوق ما تعلمون إن شاء الله... الخ، وأضاف السلطان بأن يوجه بـ "كل كتاب رسولا حاذقا فطنا ليأتيك بجوابهم وبخير باطن أمرهم وما ورد عليك من الجواب بكتابهم ولسان رسولك، أخبرنا به لنكون على بصيرة ولا تغتر، فإنه ينبغي للإنسان أن يختبر

الأمور وينظر العواقب".

- نجاح مولاي علي في مهمته:

حيث يتبين من الكتاب الذي وجهه السلطان عبد الرحمان إلى ولد عمه مولاي علي في تاريخ 7 جمادى الثانية عام 1246هـ الموافق 23 نوفمبر 1830 أن هذا الأخير نجح في مهمته و أنه دخل مدينة تلمسان واستقبل بحفاوة من طرف القبائل التي قدمت لملاقاته و من بين رؤساء القبائل المتواجدة في الحفل، القائد المازري بن إسماعيل رئيس الدوائر والزمالة، ونرى أن السلطان استوصى في كتابة هذا به وبأمثاله خيرا و كدليل لوقوف في الخدمة هو اسكنه مع الأعين في المدينة وأخبر بأنه أمر الوصيف إلاوديني بتوجيه مائة كسوة "تشريفية" ليكرموا بها أعيان القبائل تأليفا لهم وجلبا لغيرهم "وأوصى في شأن الكراغلة أن تكون المعاملة معهم بالإحسان وحتى لو قابلوا ذلك بضده و الغاية من كل ذلك هي أن يتغلب الإحسان على سوئهم وعدائهم.

- احتجاج باي وهران:

ويجدر التذكير أن في الشهور الأخيرة من سنة 1246 هـ (1830م) أي الفترة التيتم فيها الاستيلاء على مدينة الجزائر و طرد الأتراك منها، مدينة وهران لا تزال خاضعة لحكم الباي حسن وأن هذا الأخير رغم زوال السلطة المركزية التي كان تابعا لها وتخلي الدولة العثمانية عن الجزائر، لم يتوان عن تقديم احتجاج لنائب السلطان

في تلمسان مولاي علي باسم السلطان العثماني ومن هنا يتبين لنا أن العلاقات بين المغرب والأتراك بمدينة تلمسان لم تكن على أحسن ما يرام وذلك ما نراه في وجه الإجابة التي أمر السلطان عبد الرحمان نائبه مولاي علي بتوجيهها لباي وهران وذلك في الكتب المؤرخ في 7 جمادى الثانية هـ - (23 نوفمبر 1830م) حيث يقول فيه : "أما ما ذكرت على سبب قدومنا لتلك النواحي فإن أهل هذه الناحية خشوا على أنفسهم من وقود نار الفتنة فقدموا على حضرة فلان (أي السلطان) سائلين حمايته وعنايته فوجهنا إخمادا لنار الفتنة وتسكينا للروعة وحسما لمادة الثوار، وأما أنت وقولك الملك العثماني، وإنما انتم ساعون في إجراء حكمه ولا مدخل لكم، فاعلم أنك فرع من شجرة الباشا الذي كان في الجزائر وقد فقد، وحيث ذهب الأصل فقد ذهب الفرع، وأما السلطان العثماني - فنحن أعرف الناس به، فإذا قدم مرده وظهر أمره، فكلامنا معه ونحن أدرى بما نخاطبه به..."

حيث إذا كان الباي حسن بسبب تجاوزه في السن وحالته المرضية غير مهاب من جانب الفرنسيين كما أن الجزائريين لم يجدوه قادرا للاعتماد عليه وهذا ما حملهم على أن يتوجهوا إلى سلطان المغرب للالتفاف حوله في مكافحة الأعداء، فذلك كله لم يكن شأنه شأن القراغلة وجنود الأتراك الذين كانوا يحتلون قلعة المشوار

حيث كانوا يقومون انطلاقاً منها بمعارضة شديدة للتواجد المغربي في المدينة، وفي هذا الصدد يأمر السلطان في نفس الكتاب: "وإن علمتم أنكم تقدرّون على تأديبهم وإجراء الأحكام عليهم ونزع الأنفة منهم من غير إحداث فتنة أو قتال يشمت الأعداء ويرفع المعرة بل بقبض الأعيان والرؤساء منهم وإيداعهم السجن ينصفوا وتجري عليهم الأحكام ويرجعوا كغيرهم من الرعايا فافعلوا"، "وإن ظهر لكم توجيه نحو العشرين من أعيانهم لحضرتنا الشريفة ليسكن الباقون فيها يصلحكم على ذلك، وإن علمتم منه الانقياد لذلك، فاطهروا لهم ووجهوهم لعلّي حضرتنا، وإن علمتم أنهم لا يمثلون، فلا تظهروا الكتاب، وعاملوهم بما قدمنا لكم أولاً..."

- تعنت الكراغلة وأمر السلطان:

حيث أظهر الكراغلة من المقاومة للتواجد المغربي حداً أدى بالسلطان عبد الرحمان ابن هشام إلى إصدار لئائبه مولاي علي "الأمر بالقبض على جماعة من أعيانهم وتوجيههم لحضرته العالية بالله في أكبالهم، بإخراج غيرهم من القبضة مع الزام دعيّة ثقيلة عليهم ثم تفريقهم على مختلف الأحياء في المدينة ويخبر السلطان في نفس الوقت بتوجيه مدد من آلة حرب وطبجية و كساوي وأعلام وطرارد إن شاء الله".

-الدخول في طاعة السلطان:

تحسباً لكل طارئ قد يباغتهم بع العدو، قامت قبائل نواحي

معسكر بتوجيه بدورها وفد للأمير علي لتلتمس منه الدخول في طاعة السلطان عبد الرحمان.

وقد استحسن هذا الأخير في الكتاب الذي وجهه في تاريخ 18 جمادى الثاني عام 1246هـ الموافق لـ 4 ديسمبر 1830م ما قام به الأمير مولاي علي من تكريم بذلك الوفد وأصحابه عند عودته من معسكر بالطالب احمد أمجوط مع عشرة من الفرسان ومعهم المرباط السيد محمد بن مبارك، وذلك لتمثيله لدى أهل نواحي معسكر إحساسا منه لما لقي بئال معسكر من بأس ونفوذ ودور مؤثر في مجرى الأحداث، الأمر الذي تجلى فيما بعد في شخص الأمير عبد القادر وإن كان هذا الأخير لا زال لم يظهر على مسرح الأحداث إلا أن والده سي الحاج محي الدين كان له نفوذ وجاه وحسن استعداد ما يمكنه من المساهمة بفعالية في خلق جبهة كفاح واسعة يكون المغرب طرفا فيها وهذا ما تفيدنا به الرسالة التي وجهها السلطان إلى ولد عمه مولاي علي في تاريخ 18 جمادى الثاني 1246 هـ الموافق لـ 4 ديسمبر 1830م.

-مدينة الجزائر ودعوة الجهاد:

يتعرض السلطان لما أخبره المرباط الحاج محي الدين بأن القبائل من مرسى الجزائر إلى بلده (معسكر) كلها تنتظر إليه وتهتم بكل ما يقوم به من أفعال وتصرفات في شأن الجهاد، وفي هذا الصدد

يوصي السلطان عبد الرحمان نائبه الأمير مولاي علي بمكاتبة قبائل تلك الناحية لحثها على الجهاد والتضييق على العدو الكافر والامتناع من إمداده بالعون والتعامل معه، ويضيف السلطان في كتابه بالفائدة بتذكير المؤمنين بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتضمن فضل الجهات والرباط ومصير من يولي أمره للكفار أو يتعاون معهم.

-تخوف السلطان:

و حول زيارة الحاج العربي شيخ الطائفة الدرقاوية لباي وهران، نرى أن السلطان عبد الرحمان يظهر في كتابه تخوفا من كيد و مخادعة الأتراك وفي هذا الشأن، يقول السلطان: "إذا ما رأيتم أن توجهه له (أي للباي) خشية كيد فلا توجهوه له، فإنكم أولى من غيركم في تقدير ما أنتم عازمون على القيام به، ولكن إذا ما طلب (الحاج العربي الدرقاوي) أن يتكفل بمصاحبة الباي ومن معه ويضمن له أمن وسلامة الحاج العربي، فوجهوه له، والأمر الأكيد في ذلك، هو أن توجهوا السيد الحاد العربي عند باي الأتراك ولو لمصاحبة هذا الأخير من وهران إلى تلمسان، و إذا ما طلب هذا الأخير حماية بقدمه لتلمسان، فوجهوا له شيوخا عربا ليأتمن بهم و ليكون مصحوبا بعدد قليل من عساكر المخزن" ويضيف السلطان: "أنه في وسعه (أي الباي) إذا ما رغب في ذلك، زيارة هو و من معه السيد الحاج العربي، لأن منزلة هذا الأخير تقتضي لأن

الناس هم الذين يأتون أليه لزيارة و ليس هو الذي يقوم بزيارة الناس".

حيث يتبين جليا مما ورد في كتاب السلطان أن ملاقة شيخ الطائفة الدرقاوية بالباي في مدينة وهران بذاتها أثارت مخاوف كبيرة لديه لما يمكن أن تحدثه من تحالف بين عساكر الباي المتواجدة في وهران والكراغلة في تلمسان وفي احتمال في كل ذلك، انضمام لهذا الحلف، القبائل الموالية للأتراك والتي تنتمي من الوجهة الدينية للطائفة الدرقانية.

-تسريح مساجين الكراغلة:

حيث مساجين تلمسان وجهوا لحضرة السلطان، وبمجرد ما وصلوا لحضرته أطلق سراحهم كافة وأكرمهم مراعيًا لشفاعته ابن عمه مولاي علي، وبكتاب وجهه للكراغلة في تاريخ جمادى الثاني 1246هـ الموافق لـ 12 ديسمبر 1830م أخبر هؤلاء بالحدث وحثهم فيه على أن "يكونوا عند حسن ظنه بهم، في كل ما يأمرهم به ولد عمه مولاي علي وخاله الطالب إدريس بن حمان الجراري من أمور الخدمة الشريفة، وأعرب لهم عما يكتنه لهم من التقدير والشفوق والذي هو فوق ما يظنونه إن شاء الله".

ومن هذه الرسالة، يتبين أن السلطان عبد الرحمان حاول استمالة القراغلة بانتهاج سياسة العصا والجزرة ولكن هل كانت لها نتيجة

هذا ما سنراه فيما بعد.

أثار الاستيلاء على مدينة وهران:

فقد أحدث الاستيلاء الفرنسي على مدينة وهران تغييرا في مجريات الأحداث وهذا ما يبينه لنا كتاب السلطان عبد الرحمان المؤرخ في تاريخ 14 رجب الفرد 1246هـ الموافق لـ 18 ديسمبر 1830م والذي يتعلق بما أخبره به الأمير مولاي علي من دخول الفشل والوهن في القبائل وعدم ثبات هذه الأخيرة على سبيل واحد وبالأخص عند سماع نزول محلة العدو في وهران، ولمواجهة الوضع هذا أمر السلطان الأمير مولاي علي باستدعاء أعيان القبائل التي عقدت له البيعة والتزمت بالسمع والطاعة من معسكر وغيرها، بتعيين خطيب فيهم مثل ابن سعد ليذكرهم بحقوق وواجبات من أعطى البيعة ويسرد عليهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتضمنة لأمر الجهاد والحض عليه والوعيد على تركه وما يلزم المنحرف عنه، ويجمع ذلك في ورقة كالخطابة... فإذا استوعبوا ذلك، يقول لهم: "إنكم رغبتم في بيعة فلان (أي السلطان) وطلبتم نصرته وإعانتة وأنتم أمم متوافرة وجنود متكاثرة فإن كنتم تحافظون على شروط البيعة وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وتقاتلون على دين النبي عليه الصلاة والسلام الذي هو دينكم وتدافعون عن أحسابكم وأولادكم وبلادكم لتدركوا عزة الدنيا وشرف الآخرة فنحن من جملتم نقاتل في سبيل الله، فإنما أتينا ردا لكم وإعانة، وإن كنتم

لا تقاتلون على دينكم وأولادكم وبلادكم وترضون بالدخول تحت كنف الكفار وإعطاء الدنيا لهم، فما لنا وما لكم" - و يضيف السلطان في كتابه : " واكتب لنا نسخة الخطبة التي تملي عليهم على الوجه الذي ذكرناه وعلى ظهرها ما أجابوا به ليظهر لنا جدّهم من عدمه وما نعتمد عليه من جهتهم".

طلب فرنسا إخلاء مدينة تلمسان:

في كتاب مؤرخ في 2 شعبان 1246هـ الموافق 5 جانفي 1831م، أخبر السلطان عبد الرحمان ولد مولاي علي أنه وصله البارحة كتاب من طنجة يفيد أن مركبا للفرنسيين قد رسى في مدينة طنجة، فطلب واحد من كبارهم نزل منه مقابلة عامل طنجة ودار الحديث في لقائهما حول وهران وتلمسان والنواحي الملحقة بهما ومعه كتاب من عندك وعليه ختمك ويتضمن أنه قبضت على ثلاثين من القراغلة وأنزلت عليهم دعية ثقيلة وفيها حال ما قبضتموه عندهم من مال، وهذا القائد هو الثالث منهم الذي يتدخل في هذا الأمر، وإنه هدد بالدخول في الحرب و محاصرة الموانئ إذا ما لم نسلم لهم مدينة تلمسان ونحن نخبركم بهذا لتأخذوا جانب الحذر و الحيطة في مثل هذا الأمر وفي هذا الشأن، ينبغي أن تتأكدوا من صدق من توجه له كتبكم - و في ذلك، تلميح من السلطان للشخص الذي قام بتسليم كتاب مولاي علي الفرنسيين، كما يجب إحصاء كل ما

تم حجزه من مال القراغلة و غيرهم لأنّ العدو الكافر، خيب الله مسعاه، ينتهز الفرصة ليتكلم في هذا الأمر، وهكذا نكون بفضل هذا الإجراء قادرين على الإجابة له وحصر بالبيئة التي بين أيدينا دائرة حديثه لأن النصارى إذا ما أظهرنا لهم اللطيف والليونة يريدون علينا بالمزيد من الجسارة و إذا ما فتحنا لهم بابا يريدون أن نفتح لهم أبوابا أخرى و لا يوقفهم في ذلك إلا الأخذ في أمرهم جانب الحزم و الجد، فإذا ما سلمنا لهم مدينة تلمسان فإنهم يطالبون باسترداد ما ألزموا به سكانها، و لذا ينبغي أن تسد الأبواب في و وجوهم و هذا ما يمكن من بح مطامعهم أو ردئها.

تزايد الضغط الفرنسي على المغرب:

حيث أن الوضع أخذ يبدو خطيرا للسلطان عبد الرحمان، و أن مولاي علي أخذ من جانبه في التفكير في احتمال خروجه من مدينة تلمسان وكتب له السلطان ما مفاده: " لا تقررروا بالانسحاب ألا في حالة عدم تمكنكم من الحصول على التصرف مع القبائل على وجه الطاعة والصلاح، فمهما كان الأمر بالبقاء في تلمسان أو التخلي عنها فلا بد من تشتيت شمل الكراغلة، و لا ينبغي لكم الرجوع عن مقاومتهم حتى لا يبقى فيهم عرق ينبض بفساد وكف تشير لعناد، فإنهم مثار نار الفتنة في الناحية، والجهاد فيهم أولى من الجهاد في الكفار ولا يعودون إلى السكينة بهذا القدر من العقاب. أما غيرهم من السكان فينبغي ألا تبقوهم في قبضة الكراغلة وهو

ما يريده العدو لهم، فلا بد أن تتمكنوا منهم على وجه القهرية والغلبة وفي 3 شعبان 1246 الموافق 1831م أخبر السلطان مولاي علي بتوجيه 200 خيال من العبيد ومحلة مكونة من العرب والبربر.

في كتاب آخر مؤرخ في 10 شعبان 1246 الموافق 15 جانفي 1831م أخبر السلطان ولد عمه مولاي علي بتوجيه طباجبة ومحلة من أهل الغرب، ويضيف السلطان: "إذا ما أتاحت لكم الأحوال بالبقاء في تلمسان) وتمكنتم في إخراج الكراغلة من دثرة الفتنة، فإننا نوجه لكم القروان وعلى رأسها بن ناصر أو ميمون كمدد لمليانة، وبني مطير وعلى رأسهم ولد أمجتوح لمعسكر " وأوصى كذلك بدفع مستحقات الجنود عينات ونقودا عند حلول أجل التسديد والتصرف في الأموال بحدق وإقامة محاسبة لكل ما يقبض أو يصرف لأن في ذلك تمكن السلامة، ويخبر لسلطان بكتب وصلته من مليانة ومن السيد العربي من كبار أيعان غليزان، وكذلك بالكتاب الذي وجهه لبن زوموم الذي يقوم بالجهاد بشرق مدينة الجزائر في بلاد القبائل والذي يستحق منا التشجيع وأوصى أن توجه له الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتضمنة لفضل الجهاد.

- المعارضة الكراغالية :

حيث يبدو مما سبق ذكره، أن التواجد المغربي في تلمسان مرهون بموقف القراغلة منه فقد حاول السلطان بعد فشل سياسة المصالحة

إنهاء أمرهم بالقهر والغلبة ،ويتجلى مجهوده في هذا الصدد في الإمدادات في العدة والعدد التي كان يوجهها لولد عمه مولاي علي، ولكن الكتاب الذي وجهه له هذا الأخير في 12 رمضان المعظم 1246هـ الموافق 24 فبراير 1831م يطلعنا على مدى انعدام الاستقرار والأمن في النواحي الغربية للبلاد وما يشعر به السلطان من غياب الثقة في القبائل التي تسكنها ومخاوفه من موقف القراغلة المعادي له، وفي هذا الصدد يقول السلطان: "لقد أمرناك بالتوجه بالمحلة المظفرة للنواحي التلمسانية لتختبر أحوال قبائل تلك النواحي، فلا تغتر بظاهر الأمور دون أن تتقصى باطنها، فلا تبتعد عن مدينة تلمسان إلا بمسافة برد أو نصفه (أي يوم أو يومين) لا أكثر، وان لا يكون ذلك إلا بعد التمهيد لنفسك وتحقيق الأمور لان قائد المحلة مثل ربان السفينة الذي لا يأخذ سوى المسلك الذي يرى فيه أمنه وسلامته، فكونوا من أمر المحلة على جانب اليقظة وإياكم والتراخي عندما يتعلق الأمر بمن لهم قيادة فيها، فكونوا عينا وأذنا مما قد يضر بالمحلة وربما بأنفسكم، لان هذه البلاد ليست بلادكم وانتم غير مطلعين على أهلها حتى تميزا من هو صالح منهم من غيره، أو العدو من الصديق، فإن أولى الأمور البقاء في تلمسان وإذا ما اقتضى الأمر في ذلك، وظهر لكم توجيه عدد من الفرسان لتنتقل في الناحية، فليكن ذلك بعد توجيه مقدمة من المحلة إلى كل ناحية وعلى أن يكون عدد الفرسان لكل واحدة

منها مائتين وثلاث مائة أو أكثر إذ اقتضى الأمر ذلك فإنه معكم قياد وأعيان، فمن هو قادر على القيام بأمرها فأولوا له ذلك حتى يطالعونك على حقيقة الأمور وتكون هكذا بالأمر الذي تعتمرون القيام به على بال، وانتم تتعاملون كما كان الأتراك يتصرفون في تلك البلاد، فإنهم ينتقلون داخلها يضربون أين شاءوا ثم يرجعون إلى معسكراتهم.

يبدو أن الوفاق لم يثبت أمام صعوبة الموقف بين عوني السلطان عبد الرحمان بن هشام في تلمسان وهما ولد عمه مولاي علي وخاله الطالب إدريس بن حمان الجراري هذا ما يتبين من الكتاب الذي وجهه لهما حيث أخبرهما فيه بتعيين ثالث من أبناء عمه ليضاف إليهما ليكون صوت مرجح في أخذ القرار وهو مولاي عبد المالك ويأمرهما أن لا يقدموا على أمر ما بدون أن يأخذا برأيه و الحصول على موافقته.

-الفرنسيون يولون باي تونس على وهران:

حيث حاول الفرنسيون تولية على وهران والنواحي الغربية المتاخمة للمغرب باي تونس وقد قدم بالفعل هذا الباي على وهران ولكن قرار تعيين هذا الباي والذي اتخذه المارشال كلزار في 16 رمضان المعظم 1246هـ الموافق 6 فبراير 1831م باقتراح القنصل العام في تونس مقابل مساهمة جيائية سنوية مبلغها مليون فرنك لم

يحصل على موافقة وزارتي الشؤون الخارجية والحرب وعاد هذا الباى إلى بلده، وحول هذا الأمر يقول السلطان: "وقد وصلنا خبر قدوم لوهـران باى من تونس ومعه محلة، الأمر الأكيد هو أن تعرفونا بمقاصد قدوم هذا الباى لوهـران وأسباب ذلك وكذلك حال قبائل تلك الناحية التي ترغب في ذلك والتي لا ترغب، والسلام".

- في تلمسان وانسحاب محلة السلطان:

أحداث خطيرة تكون قد وقعت في تلمسان أو بنواحيها، وهذا ما يستنتج من الكتاب المؤرخ في 24 رمضان المعظم 1246هـ موافق 6مارس 1831م الذي وجهه السلطان عبد الرحمان بن هشام لولد عمه مولاي علي بمفرده، وحسب مضمون هذا الكتاب أن سير الأحداث لم يعد في الاتجاه المرضي وأن موقف القبائل لم يعد ثابتا ويبعث على الثقة وعن هذا الوضع العويص يقول السلطان: "فقد وصلنا كتابك وعرفنا مضمونه، وأعلم أنه منذ توجهاتهم بالمحلة لتلك النواحي وأفكارنا متعبة، وقلوبنا مشوشة وتارة يرد علينا ما يسرنا وتارة يرد خلافه، وما كلفنا الله بهذا ولا حاجة لنا بقتال المسلمين وسفك الدماء بغير حق، فإن كان أولئك القوم عند أقوالهم ومرادهم في الخدمة والصلاح، فهم يحرصون علينا ولا نحرص عليهم، ومن وفى بما عاهد الله عليه فعاملنا بوجدة يتصرف معه على وجه الطاعة والصلاح، ومن ارتد على عقبيه فلا حاجة لنا

به حتى يقف على رأيه ويعلم عاقبة أمره، ومن وجعته الضرس يبحث عن الكلاب. والعمل على ما قدمنا لكم من جمع المتفرق من المحلة، والقدم فوراً وجعل الأشياء للقبائل والحواضر وكلامهم مع عامل وجدة، وإياكم والتاريخي في ذلك والسلام".

ويجدر التنبيه أن هذا الكتاب يتزامن مع استيلاء الفرنسيين على مدينة وهران والخيار الذي تحقق آنذاك حيث من كان موالياً للأتراك اختار الانحياز لفرنسا ومن كان وطنياً تابعاً لحركة الوالي الصالح الشيخ محي الدين وولده الأمير عبد القادر أخذوا في تنظيم صفوفهم استعداداً للجهاد ضد الفرنسيين بإمكانياتهم الخاصة.

حيث بانسحاب محلة السلطان عبد الرحمان من تلمس أن بموجب الكتاب المؤرخ في 24 رمضان المعظم 1246هـ الموافق 8 مارس 1831 م تخلص الفريقان من السلطان عبد الرحمان وأعوانه وانتهت الزعامة التي أولاها سكان النواحي الغربية ليقودهم في الجهاد من أجل نصرة الإسلام والمسلمين في الجزائر.

الوثائق والإحالات

نقدم فيما يلي ثلاث رسائل نموذجية، عن مراسلات السلطان عبد الرحمان بن هشام إلى عامله في تلمسان وقائد جيشه في الغرب

الجزائري، ابن عمه مولاي علي، وإلى خاله ونائبه حاكم وجدة إدريس بن حمان الجراري على حين وصول مبعوثه الخاص أبين عمه مولاي عبد الملك.

أما مجموعة الرسائل المشار إليها في البحث فيمكن الإطلاع عليها في:

- 1 - كتب " عقد الاجياد في الصافنات الاجياد " للأمير محمد نجل الأمير عبد القادر، بيروت 1290هـ.
- 2 - مجلة: أكاديمية علوم المستعمرات - الكتاب 2 - باريس 1925م.

الوثيقة الأولى

22 ربيع الثاني 1246 (10 أكتوبر 1830)

رسالة السلطان إلى حاكم وجدة إدريس بن حمان الجراري .
خالنا الأرضي الطالب إدريس بن رحمان الجراري، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فقد كتبنا كتباً لقبائل تلك النواحي التلمسانية سترد عليك صعبة أصحابك الواردين مع جماعة أهل تلمسان ولا بد من تقديم كتب من عندك على وجه الاختبار للقبائل الذين لم يقدم أحد منهم وهم العمدة غي تلك النواحي مثل بني عامر والحشم والزماله والدوائر فإن عليهم مدار أمرهم فبوصول كتابنا هذا إليك أكتب لكل قبيلة منهم

كتابا من عندك وقل لهم أن فلانا لا لرغبة له في هذا الأمر وقد قدم عليه أعيان تلمسان وبعض قبائلهم وذكروا أنكم معهم على كلمة واحدة في الرغبة في الدخول في طاعته والطلب لحمايته وقد أجابهم لما طلبوا من ذلك طلبا لجمع كلمة المسلمين وحفظهم من أن يستفزههم العدو الكافر ويفرق جماعتهم وصونا لهم من الهرج والفتن وانتم أولى من سعى في ذلك وقام به فينبغي لكم أن ترغبوا فيه أكثر من غيركم وقد عين ولد عمه الأرضى مولاي علي للتوجه لهذه النواحي وهو بصدد القدوم في محلة من جيشه يصبحكم أو يمسيكم وهو بضعة نبوية ينبغي لكم تقديم جماعة من أعيانكم لملاقاته عندنا تعظيما لقدرة ورغبة غب أمره فإن لكم عنده من المنزلة والمزية فوق ما تعلمون إن شاء الله. - ووجه بكل كتاب رسولا حاذقا فاطنا ليأتيك بجوابهم وبخبر باطن أمرهم وما ورد عليك من الجواب بكتابهم ولسان رسولك أخبرنا به لنكون على بصيرة ولا نغتر فانه ينبغي للإنسان أن يختبر الأمور وينظر العواقب وإن ورد عليك ابن عمنا مع المحلة قبل ورود جماعتهم فافعل له الإقامة هناك بقصد الاستراحة أياما وأنت تختبر ووجه عند وصول المحلة مقدمة من الجيش صحبة قائد عاقل فطن لتلمسان يصلها أولا ويختبر الأحوال ويخبرك والمقدمة التي تقدم معه عشرة من وصفاننا وعشرة من أخواننا الاوداية وعشرة من أخواننا

شراقة وعشرة من الأحلاف وكن عينا وأذنا ولا تغتر بظاهر الأمر
دون أن تتقصى على باطنه فإذا اختبرت الأحوال ووجدت الأفعال
موافقة ومحللتا بعد التمهيد لنفسك وتحقيق الأمور والله يوفقك
والسلام.

في 22 ربيع الثاني 1246
(موافق 10 أكتوبر 1830)

الوثيقة الثانية

18 جمادي الثانية 1246 (4 ديسمبر 1830)

رسالة السلطان إلى مولاي علي وإدريس بن حمان الجراري.
الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.
ولد عمنا الأبر الأَرْضى مولاي علي و خالنا الارشد الطالب إدريس
بن حمان الجراري وفقكم الله و سلام عليكم ورحمة الله تعالى و
بركاته ، وبعد، فقد وصلنا كتابكم مخبرين بانتهاز الفرصة في
الكرغليين و القبض على جماعة من أعيانهم حيث تحققتم
بانطوائهم على الغدر و نصبهم لحبالات النكر و المكر ومقابلتهم
الإحسان بالإساءة والبشاشة بالبذاءة فقد وقع العقاب في محله ولا
يحين المكر السيئ إلا بأهله وكنا نأمركم بالفض عنهم ولين
الجانب ما وجدتم لذلك سبيلا حيث لم ينفع ذلك وبدأتموهم تموهم
فلا ينبغي لكم الرجوع عن مقاومتهم حتى لا يبقى فيهم عرق ينبض
بفساد وكف يشير لعناد ، فوجهوا من قبضتم منهم لحضرتنا العالية
بالله في أكبالهم واجتهدوا في مقاومة من بقي منهم حتى تتمكنوا
منهم على وجه القهرية والغلبة ، فإنهم لا يسوغ معهم الآن صلح ولا
مسألة ماداموا على تجبرهم وعنادهم وأما مددنا وارد عليكم في

أثره شيئاً فشيئاً إن شاء الله تعالى وقد وجهنا مائة من فرسان عبيد سيدي البخاري مع مائة فارس من أخواننا الاودية ومائة راجل لتركب ستون منها على ستين من الخيل التي بأيديكم و الباقي ينتظر فضل الله وامرنا وصيفنا الاوديتي أن يوجه صحبتهم ستين سرجاً ويوجه بعدهم كمال المائة وكتبنا على محلة أخرى من وصفائنا آل الصويرة ومراكشة وغيرهم وسترد عليكم في إثر هذه وامرنا الاوديتي أن يوجه هشرة خزائن طراحيية⁽¹⁾ بقصد الاضياف وسيرد عليكم ما طلبتم من آلة الحرب والطبجية⁽²⁾ والكساوي و الأعلام⁽³⁾ والطرارد⁽⁴⁾ إن شاء الله، فكونوا رجالاً ولا تقصروا في أمر الكرغلية حتى تقبضوا ما عندهم من مال المخزن على التمام وألزموهم دعية⁽⁵⁾ ثقيلة ولا تقلعوا عنهم حتى تخرجوهم من القصبة⁽⁶⁾ ويتفرقوا على السكني بتلمسان وتحوزوا القصبة فإذا حزتموها فانزلوا فيها انتم ومن معكم من الجيش ومن يرد عليهم بعد وأكملوا عمارتها ببعض الحضر⁽⁷⁾ وبعض من يصبح من القبائل، وإياكم ثم إياكم التراخي في أمرهم، والله يعينكم السلام.

في 18 جمادي الثانية 1246 هجري (الموافق لـ 4 ديسمبر 1830).

1 - خزائن طراحيية: خيام لاستقبال الضيوف.

2 - الطبنجية: المدفعية.

3 - الأعلام: الرايات.

- 4 - الطرارد: الرماح.
- 5 - دعية: غرامة
- 6 - القصبة: هي المشوار الكائن في وسط تلمسان حيث انطلقت مقاومة الكراغلة لجيش السلطان عبد الرحمان بن هشام.
- 7 - الحضر : السكان الأصليون بمدينة تلمسان.

الوثيقة الثالثة

24 رمضان المعظم 1246هـ (8 مارس 1831).

رسالة السلطان إلى مولاي علي:

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله و صحبه وسلم
و تسليما.

ولد عمنا الأرشد مولاي علي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله
تعال وبركاته ، وبعد ، فقد وصلنا كتابك وعرفنا مضمونه وأعلم
أنه منذ توجهتهم بالمحلة لتلك النواحي وأفكارنا متعبة وقلوبنا
(متشوشة) وتارة يرد علينا ما يسرنا وتارة يرد خلافه وما كلفنا
الله لهذا ولا حاجة لنا بقتال المسلمين وسفك الدماء بغير حق فإن
كان أولئك القوم عند أقوالهم ومرادهم في الخدمة و الصلاح فهم
يحرصون علينا ولا نحرص عليهم، ومن وفي بما عاهد الله عليه

فعاملنا ⁽¹⁾ بوجدة (يتصارف) معه على وجه الطاعة وإصلاح ومن ارتد على عقبيه فلا حاجة لنا به حتى يقف على رأيه ويعلم عاقبة أمره ومن (وجعته) الضرس يبحث عن (الكلاب)، و العمل على ما قدمنا لكم من جمع المتفرق من المحلة و القدوم فورا وجعل الأشياخ للبائل والحواضر وكلامهم مع عامل وجدة وإياكم التراخي في ذلك و السلام .

(في 24 رمضان المعظم عام 1246 الموافق 8مارس 1831).